العرب
الأحد 2021/03/14
السنة 43 العدد 11999

مصر تتعامل مع تركيا كأزمة أمنية وليست سياسية

ردود القاهرة المقتضبة على رسائل أنقرة تضع عليها ضغوطا مضاعفة

لا مصالحة بين القاهرة وأنقرة دون تصفية الملفات الأمنية

مصر لا تعطي التصريحات الرسمية التركية بشأن عودة العلاقات أهمية وتنظر إليها كملف أمني يحتاج إلى تفكيك عناصره، خاصة ما تعلق بالمئات من العناصر الإخوانية الهاربة في تركيا، فضلا عن المرتزقة الذين دفعت بهم أنقرة إلى ليبيا. وبعد ذلك يمكن أن يرتقي التعاطي الأمني إلى تعاط سياسي.

محمد أبوالفضل
كاتب مصري

رغم الطابع الأمني والاستخباراتي فيما تردد مؤخرا من اتصالات بين تركيا ومصر، غير أن أنقرة تحاول أن تصبغها بطابع سياسي واقتصادي، وتاريخي واجتماعي أحيانا، بينما القاهرة ترى أنها أزمة أمنية بامتياز إذا جرت تصفية رؤوسها ونيولها يمكن فتح الطريق في مجالات أخرى، وليس العكس.

ظهرت تجليات الحسابات المصرية في حصر الاتصالات على المستوى الأمني، وهو أمر مفهوم، فرضه تدخل تركيا العسكري في ليبيا، واستعراض قطعها البحرية وانتشارها في شرق البحر المتوسط، ولتجنب الصدام من المهم أن تكون هناك اتصالات بين مسؤولين أمنيين من الطرفين، وهو عُرف في تعاملات أجهزة الاستخبارات في مناطق الصراعات، لا يكفي لاتخاذه كدليل على الوئام والانسجام بين الدول.

> إذا كانت تركيا راغبة في تطبيع علاقاتها مع مصر فعليها الاستجابة لذلك في ملف الإخوان، وسحب مرتزقتها من ليبيا أولا

تحدثت غالبية المستويات السياسية في تركيا حول أهمية العلاقات مع مصر الأيام الماضية، بدءا من رئيس الجمهورية ومستشاره السياسي، والمتحدث باسم حزب العدالة والتنمية الحاكم، وصولا إلى وزيري الدفاع والخارجية، بينما لم يتحدث مسؤول سياسي مصري معلوم، وجاء الردّان اللذان ظهرا في وسائل الإعلام، الجمعة، على لسان مصادر أمنية رسمية لم تفصح عن اسمها.

قد يعتبر البعض هذا النوع من الردود المصرية ينطوي على إهانة سياسية بالغة لتركيا فتخفيض مستوى الرد على مستويات رفيعة يوحي بهذه النتيجة، وتعامل معه آخرون على أنه أسلوب مقبول وينسجم مع الاتصالات الأمنية ويضعها في حجمها الصحيح دون تضخيم، خاصة أنها لم تتبلور عن نتيجة ملموسة ولا تزال في مراحل أولية، وتقتصر على المستوى الثاني من المسؤولين.

هناك فريق ثالث رآها مؤشرا على التريث المصري وعدم الاستعجال في الانجراف وراء تصريحات إعلامية صاخبة يتبناها الطرف التركي لتأكيد حُسن نواياها تجاه القاهرة التي تتعامل معه بقليل من الاكتراث، لأن التطورات الأخيرة خدمت توجهاتها في التعاطي مع تركيا كأزمة أمنية، وباتت على يقين من أن أنقرة في حاجة إليها.

تحديات للأمن القومي

يتجاوز تتابع التصريحات الإيجابية الصادرة من أنقرة توصيل رسالة مباشرة إلى القاهرة وحدها، بل تتخذ منها وسيلة للإيحاء بأن ثمة تحولات جارية في صناعة القرار ترمي لتعزيز الرغبة في تحسين العلاقات مع دول المنطقة، وتغيير الانطباعات السلبية عنها، وأن ثمة مرحلة جديدة بازغة يمكن البناء عليها.

يتأسس التعامل المصري مع تركيا كأزمة أمنية على دورها العسكري في دعم التنظيمات المتطرفة، في مقدمتها جماعة الإخوان في المنطقة، والتي ارتكبت جرائم إرهاب في مصر وغيرها من البلدان، وتدخلها العسكري في ليبيا ووقوفها خلف المرتزقة الذين أرسلتهم بكثافة إلى طرابلس خلال العامين الماضيين.

ناهيك عن سعيها لترسيخ دبلوماسية البوارج في شرق المتوسط، وتدخلاتها السافرة في كل من سوريا والعراق والصومال، واقترابها من اليمن، وعلاقتها الجيدة بحركة حماس الفلسطينية وجناحها العسكري "كتائب عزالدين القسام"، وكلها تندرج ضمن تحديات الأمن القومي المصري، وتمثل تهديدا داهما للأمن القومي العربي.

لم تظهر فكرة محاولة تواصل تركيا مع مصر سياسيا هذه الأيام فقط، بل بدت حاضرة في كثير من اللقاءات الإقليمية والدولية التي كان البلدان طرفا فيها، حيث تعمد ممثلو أنقرة التودد إلى دبلوماسيين مصريين، لكن لم يجدوا استجابة، لأنهم على علم بفحوى الأزمات، ولن تنصلح الأمور السياسية ما لم يحدث اختراق حقيقي في نظيرتها الأمنية.

وتنتظر القاهرة أن تتخذ أنقرة من الخطوات العملية ما يجعلها تغير نظرتها من الأمني إلى السياسي، وإلى حين صدور مواقف تصبّ في هذا الاتجاه سيظل التعامل أمنيا من جانب مصر، وهو المحك الذي يكشف حقيقة الرسائل التركية الأخيرة، فإذا كانت راغبة في تطبيع علاقاتها مع مصر فعليها الاستجابة لذلك في ملف الإخوان والتنظيمات المتطرفة، وسحب عناصرها ومرتزقتها من ليبيا أولا.

يبدو البعد الأمني حاضرا في كل أزمة خارجية مصرية، وعندما يكون طاغيا، كما هو في حالة تركيا، من الطبيعي أن يتراجع دور الطاقم الدبلوماسي ويقتصر على التمثيل الرسمي، وغالبا ما يضم الفريق الرسمي عناصر أمنية، وهي ميزة وعيب في آن واحد، ميزة لأن الأمن هو الجهة الأكثر إلماما بالتفاصيل، وعيب عند اتخاذ القرار في قضية مّا فحين تتغلب فيها التقديرات الأمنية على الرؤية السياسية تتولد العديد من الحساسيات.

تجنبت القاهرة هذه الإشكالية مع تركيا، ولم تظهر على السطح فجوة بين المكونين الدبلوماسي والأمني، لأن كل الأزمات تأتي فيها الأبعاد السياسية في مرتبة تالية، فلا يمكن التعامل مع ما تقوم به أنقرة من تصرفات عسكرية في مناطق النزاعات من زاوية سياسية، ولم تحدث الليونة التركية تغييرا في ثوابت الموقف المصري، وحافظ على نظرته الأمنية، والتي لا تطّلع على كثير من مفرداتها الطواقم الدبلوماسية.

وخلا الخطاب التركي في الأسابيع الماضية من الأوصاف السلبية التي درج على إطلاقها الرئيس رجب طيب أردوغان حيال الرئيس المصري عبدالفتاح السيسي ونظامه لتعزيز مسعى أنقرة الحثيث لتهدئة العلاقات مع القاهرة.

بين ليبيا والإخوان

أدركت أنقرة أن عودة الإخوان إلى السلطة في مصر باتت من الماضي وعليها التطلع إلى المستقبل وحان الوقت للتخلص من ميراث ثقيل كبلها كجزء من تحولات استراتيجية كبيرة لمواجهة عزلة أنقرة المتزايدة، وتحاشي الارتطام بصخور إقليمية ودولية متباينة أخذت تلتفت إلى ألاعيب جماعة الإخوان ومن يقفون خلفها، وهو ما تثمنه القاهرة، لكن من الصعب نسيانه وغض الطرف عن الجرائم التي ارتكبت.

كان دعم أنقرة للإخوان خلال انتفاضات الربيع العربي محوريًا لأهداف عقائدية لتعزيز نفوذها في الشرق الأوسط، ووجدت في انتشار الجماعة بالمنطقة عصا غليظة تمكنها من التغلغل في دول كثيرة، بينها مصر، الأمر الذي جعلها تحتضن قياداتها وتوفر لهم دعما سخيا، سياسيا وإعلاميا وماديا واجتماعيا، ويصعب نسيان التداعيات التي أحدثتها هذه الرعاية من الناحية الأمنية.

تشير بعض التقديرات المصرية إلى أن عدد عناصر الإخوان والموالين لهم من المقيمين في تركيا يصل إلى حوالي ستة آلاف عنصر، بعضهم اصطحبوا معهم أسرهم ويقيم معظمهم في إسطنبول، وحصل عدد كبير منهم على الجنسية التركية، وهؤلاء قد يتحولون إلى قنابل موقوتة ما لم تقم بتسوية ملفاتهم الأمنية مع مصر.

لم تعلن أنقرة تخليها عن دعم الإخوان صراحة، لأنها جزء من أيديولوجية حزب العدالة والتنمية الحاكم، كما أنّها لم تفصح عن تطمينات لقيادات الجماعة المقيمين على أراضيها تريحهم، والذين ينتابهم القلق خوفا من التضحية بهم، أو تقويض دعمهم.

تخشى قيادات الجماعة قيام تركيا بتسليم عدد من القيادات لمصر، خاصة هؤلاء الذين صدرت في حقهم أحكام قضائية نهائية في قضايا عنف وإرهاب، وتضعهم القاهرة على اللائحة السوداء، وتنتظر وصولهم لتنفيذ العقوبة.

من المرجّح أن تقوم تركيا بتضييق مساحة الحرية المتاحة للإخوان من دون التضحية بهم تماما أو تسليمهم لأجهزة الأمن المصرية، حفاظا على مصداقيتها أمام القواعد الحزبية المنزعجة من التغيير المفاجئ حيال القاهرة.

شدّد خبراء في شؤون الحركات الإسلامية على أنّ مصر بعد أن قوضت أجهزتها الأمنية التنظيمات المتشددة في الداخل تتعامل باطمئنان مع القوى التي استغلتها ووظفتها تركيا، وأصبحت هناك قناعة بعدم نجاعتها السياسية والأمنية.

وأرجع الخبير في شؤون الحركات الإسلامية ماهر فرغلي، في تصريح لـ"العرب"، ذلك إلى ثبوت فشل مشروع الإخوان في السلطة، وأن الجماعة صارت بمثابة "حصان خاسر للقوى التي راهنت عليها وفي مقدمتها تركيا وقطر".

بعد فشل مشروع الإسلام السياسي في مصر والسودان واليمن، فضلا عن ترنحه في تونس، صارت القوى الدولية تتعامل بواقعية معه وتعيد الاعتبار لرؤية مصر الأمنية، ما يجبر قوى إقليمية داعمة للإخوان، مثل تركيا، على تخفيف حدة عدائها لمصر والتفكير في مصالحها أولا، وهو ما تقبله القاهرة، شريطة اتخاذ جميع الإجراءات اللازمة لتصفية الملفات الأمنية المعلقة.

جاء البابا وذهب، فماذا لو لم يذهب؟

علي الصراف
كاتب عراقي

لرسالة المحبة والسلام سحرٌ خاص. ولكن ليس لأنها رسالة السيد المسيح أصلا، بل لأن الكل يحتاجها حتى القتلة. ولقد حملها إلى العراق رجل هو واحدٌ من أقدس مَنْ جسدوا تلك الرسالة، في كل أفعاله، وحيال كل القضايا الإنسانية الكبرى. وما أن وطأت قدماه العراق حتى مسّ الجميعَ شيءٌ من ذلك السحر.

نيران الحرائق انطفأت. وفوهات البنادق صمتت. والاغتيالات توقفت. وبعض مظاهر الخراب تغطت، ربما خجلا. ومرت نسمةُ سلام على نفوس المشردين والثكالى والأيتام. كانت نسمة غريبة. غير مألوفة. نساها العراقيون منذ زمن طويل، فتذكروا أنهم كانوا يوما من غابر الأيام شعباً لا قطعان طوائف. وأنهم بشرٌ يستحقون المحبة لا مجرد مطايا لمصالح عصابات وميليشيات استولت على كل شيء.

الذين لا يؤمنون بأن "الدين أفيون الشعوب" شاهدوا العكس تماما. إذ وجد العراقيون أنفسهم تحت وطأة الخدر اللذيذ؛ خدر يزدحمُ بالأماني الطيبات، وبأن يوما مّن أيام الغد سيكون يومَ سلام ومحبة دائمين؛ يومَ خدر متواصل.

تُساءل الكثيرون في أنفسِهم: ماذا لو بقي البابا فرنسيس مدة أطول؟

الجوابُ الذي جاء من خلف ستائر الصحو قال: سيكون سيستاني آخر. فدعوه يذهب، ليبقى من السحر شيءٌ يعلقُ بالذاكرة على الأقل.

لم يظهر في بارز الصورة رجال دين سنة أو يهودا أو صابئة. ذلك أن عراق الولي الفقيه تشيّع. التعددية التي سقطت من الضمائر سقطت من الصورة أيضا. ولئن التقطت عينا بابا الفاتيكان مشاهد النفاق والمزاعم الحضارية والتعددية في الملابس الفولكلورية لراقصي الاستقبال، فإنه بحنكة المُجرّب الذي عرف مسالكَ التخلف من أصوله الأرجنتينية، كان يعرف أن الدجل الطائفي الذي ساق العراق إلى ما ساقه إليه، سيظل يرسمُ صورا زائفة. تلك هي طبيعته أصلا.

ما كان البابا فرنسيس بحاجة إلى شوارع نظيفة. هو يعرف أن العراق الذي تشيّع تحت سلطة الولي الفقيه وسخٌ وتفوحُ منه رائحةُ فساد يمكنها أن تلوث الكرة الأرضية كلها. وبرحمة من رب العالمين لم يُصبح التشيّع الصفوي ظاهرة بين المسلمين، وظل محصورا على ميليشيات الخميني وخامنئي ليكونوا خداما وخونة. ولم يكن ذلك مجرد مصادفة. الله لا يصنعُ مصادفات أبدا. كل شيء في بلاءاته متقن حتى سلطة القتلة.

تجول البابا في أرجائها، تحيطه هالةٌ من الطمأنينة، بأن القتلة لا يتصرفون كقتلة في حضرته. ولا اللصوص. الكل يكف عما يفعل.

أجواءُ السحرِ الغامر أقنعت مصطفى الكاظمي أن يطرح مبادرةً لحوار وطني شامل. يجمعُ كل القتلة وكل ضحاياهم على طاولة سلام ومحبة. كتبها له واحدٌ حاول أن يغازل لُغة الخطاب القديم؛ خطاب الرفعة والشموخ، إنما في بلد بات ذليلا وفقيرا وممزقا. قال ما قال من تافه المعاني الفارغة، ولكنه في حالة الخدر ظل معذورا بأن يترنم بما كانت تصدح به البلابل أيام كان العراقُ يريدُ أن يكونَ عراقاً. ولكنه بات بلدا آخر. تصدحُ به التماسيح. وتلعلعُ فيه البنادق. ويسودُ به الجهلة.

لم يلحظ الكاظمي (خَطيّة) أن جماعته أنفسهم لا يطيقون بعضهم بعضا. وأنهم يتنافسون على اقتسام المغانم، بما فيها منصبه، لأن راتبه السنوي يتجاوز عشرات الملايين. فكيف لا يطمع به الصعاليك الذين وإن اغتنوا مما نهبوا، إلا أن "العين الجوعانة" تظل جوعانة. ولأن الدجاجة (في العراق) "تموت وعينها على المزبلة".

ما كان مُهمّاً في حالة الشعر وتغريد البلابل أن يقول الكاظمي: حوار على ماذا؟ أو كيف يمكن الوصول إليه؟ وهو الذي عجز عن أن يحاكم فاسدا واحدا، أو أن يعتقل قتلة الناشطين، إلا عصابة واحدة، قبل أن تشتد عليه الضغوط من أركان العصابات المجاورة كلهم. لأنهم هكذا بمحض "الصدفة" وجدوا أنفسهم شركاء في المسعى لإنقاذ المجرمين من حبل المشنقة. والله لا يصنعُ مصادفات أبدا.

ما كان مُهمّاً أيضا أن يلاحظَ أن النقاش الوطني من أجل الإصلاح قائمٌ أصلا، وأن الملايين من المتظاهرين ظلوا يهتفون به حتى سمعتهم الكواكب الأخرى، وأن حكومته جاءت بفضله، بيد أنها فشلت مثلما فشلت حكومات سابقة. ولكن ماذا تراه يقول غير ذاك وهو في حالة الخدر؟

لم تسع الثقافةُ "رئيسَ وزراء العراق" أن يسأل نفسه ما إذا كان قادرا على تحريك ضفدعة، ولو من بركة آسنة إلى بركة آسنة أخرى من دون أن يستأذن أركان العصابة. ولا وسعته أن يسأل ما إذا كان العراق الذي يقوده يملك من أمره شيئا. أو ما هو جدول الأعمال؟ أو من سوف يتولى تنفيذه؟

> الدجّالون نصَبوا سرادقَ الاحتفال بمجيء البابا لكي يتطهروا به كما يفعلون عندما يفعلون كل الأفاعيل قبل أن يذهبوا إلى «المراقد المقدسة»

نصبَ الدجّالون، وتلك صنعتهم التاريخية بالأساس، سرادقَ الاحتفال بمجيء البابا لكي يتطهروا به. كما يفعلون عندما يفعلون كل الأفاعيل قبل أن يذهبوا إلى "المراقد المقدسة" لكي يتمسحوا بشبابيكها والدم يسيل من أكفهم. فيتزكوا بما نهبوا، ويستغفروا "الإمام" عمّن قتلوا "حبا به" وتقربا. زلفى كزلفى الأصنام إلى ربها. اللات والعزى وهُبل. تلك هي الأئمة الأصل. وذلك هو سبب وجودها: أن ينصب لها "اللطّامون" سرادق الدجل. قبل "الخُمس" وبعده. ليقرأوا "المقتل". فيبكوا. فتزول غيمة الخطايا عن كرب النفس التي ما كربت إلا ربها بما فعلَت.

انتظروه لكي يُنهي زيارته، فيعودوا إلى ما ألفوا. إذ لم يكن من المعقول أن يعيشوا تحت ضغط تزوير طويل الأمد. التقطوا كل الصور لتكون برهاناً على أنهم تمسحوا بالبركة. وشموا رائحة غير رائحة العفن الذي ظل يفوح على أعطافهم من إيران.

قال البابا إنه يذهب "والعراق باق في قلبه دائما". ولكنه رأى العراق الذي في قلبه فحسب. جاء بسحره ليرى بعض ملامحه. أزال نصابو المهدي المنتظر بعض الأوساخ من الطريق. مهدوا بعض الطرقات التي كان سيمر بها. أقاموا إنارة مؤقتة هنا، وأخرى هناك، لعله لا يرى التشوّه كاملا.

ولكن ناظرا لما في قلبه ما كان ليرى شيئا آخر في جميع الأحوال. ولو أنه بقي في عراق الولي الفقيه، فلربما زالت "التشابيه" عن الطرقات، وقعدَ قعدةَ السيستاني ليتأمل في فراغ الرحمة دونما نقمة عما يرى. دونما صرخة. دونما دعوة إلى ثورة غضب.

سوى أن ذلك ليس من طبع هذا البابا الجليل. إنه بيساريته المشهودة أكبر بكثير من أن يكون صانع أفيون.

خرج من العراق ليبقى في قلبه ذلك العراق الذي لم يُقتل فيه مسيحي واحد؛ عراقٌ كان المسيحيون واليهود والصابئة والإيزيديون جزءا من طبيعته. عراقُ الأكراد والعرب. عراق الطوائف التي لم تعرف خطوطا ولا جدرانا فاصلة. عراق السلام والمحبة.

ولكنه ذهب وبقي عراق القتلة. كانوا هم أنفسهم بحاجة إلى بعض أفيون جديد غير أفيونهم التقليدي. فوجوده ممتعا. وعادوا إلى ما ألفوا عليه آباءهم وأجدادهم.